هدي الرحمة المهداة
في استمالة وكسب الاعداء

إعداد:
د. محمد حسن علي ظاهر الطائي
التدريس في كلية الامام الاعظم
العراق – نينوى

المقدمة

الحمد لله الرحمن الرحيم ذي القوة المتين الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له في رحمته وعدله وقوته كفوا احد، والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين وجعله هاديًا ومربيا وقدوةً للمؤمنين محمدٍ ابن عبدالله الصادق الأمين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وعلى من اهتدى بهديه واستن بسنته واقتفى أثره إلى يوم الدين، وبعد:

فإن من رحمةِ الله تعالى على خلقه أن بعث فيهم رسلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل، قال عز من قائل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء:١٥]، ثم كان من رحمته جل في علاه على خلقه أن بعث فيهم خير أنبيائه ورسله محمدًا ﷺ، أرسله رحمةً للعربِ خاصةً وللناس عامةً، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧]. فرحمةُ النبيﷺ رحمةٌ شاملةٌ وعامةٌ وعالميةٌ، وليست عنصرية تقوم على الأعراق أو الألوان أو المذاهب، بل رحمة لكل البشر، للعربي وغير العربي، للمسلم وغير المسلم، للمؤمن والمنافق، للرجل والمرأة، للكبير والصغير، للإنسان والحيوان والجماد والنبات. فقد جاءت هذه الرحمة المهداة لتخرج الناس من الظلمات إلى النور من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والاخرة. فإضافة

إلى رحمته بالمسلمين فقد بُعثَ ﷺ رحمةً لغير المسلمين يوظف هذه الرحمة معهم بأن يأتلف قلوب المشركين وأهل الكتاب ليدخلوا في الإسلام، فكان يلاطفهم ويكلمهم بأرق الكلام وألينه على قلوبهم وكان يقبل بوجهه إليهم. وفي هذا البحث الموسوم «هدي الرحمة المهداة في استمالة وكسب الأعداء «سنقف عند رحمة النبي ﷺ بالمخالفين له، لنبين من خلاله كيف كانت رحمته بالمشركين والمنافقين وأهل الكتاب، وكيف أن وجوده بين ظهرانيهم كان نعمةً دنيويةً لهم، إذ رفع الله عنهم الهلاك الجماعي بحكم قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣]، وكم كان ﷺ حريصًا على هداية الناس ودعوتهم إلى الإسلام وكسبهم واستمالتهم بالحكمة والموعظة الحسنة بدلًا من قتالهم ودفعهم إلى اعتناقه بالقوة، وهذا الذي أدى به إلى ملاطفتهم والتكلم معهم بأرق الكلام وألينه، والإحسان إلى أسراهم والعفو عنهم، ودعوته أصحابه رضي الله عنهم ومن ثم الأمة الإسلامية إلى الالتزام بهذا الهدي الراقي في التعامل مع المخالفين في الدين من أجل استمالتهم وكسبهم إلى الإسلام بالكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة لا بالتخويف والترويع والترهيب، لنكون بهذا الدين القويم والسمح خير أُمةٍ أُخرجت للناس تدلهم إلى طريق الحق ليخرجوا من ظلام الكفر والوثنية إلى نور الإسلام والتوحيد.

من أجل ذا قُسِمَ البحثُ إلى تمهيدٍ وأربعةِ مباحثٍ وخاتمةٍ، تطرق التمهيد إلى الكيفية التي من خلالها اكتسب الرسول ﷺ هذه الرحمة، لنرى كيف أن حياة اليتم والعمل والكدح والخلوة كان لها الأثر الكبير في امتلاء قلبه الشريف بالعطف والرحمة بالناس أجمعين، لنمهد الطريق بعدها لبيان دعوته ﷺ والتعاليم التي جاء بها والتي كانت بمجملها رحمةً للعالمين، ليندرج بذلك المبحث الأول تحت عنوان «رحمة النبي ﷺ في دعوته وتعاليمه "، وفي المبحث الثاني والذي حمل عنوان «هدي الرحمة المهداة في استمالة وكسب المشركين «تطرق البحث إلى رحمته ﷺ بالمشركين من قريش وسائر

قبائل شبه الجزيرة العربية وحرصه على إسلامهم والدعوة لهم بالهداية إلى دين الحق، وفي المبحث الثالث والذي حمل عنوان «هدي الرحمة المهداة في استمالة وكسب المنافقين «تطرق الباحث من خلاله إلى رحمة نبي الرحمة بالمنافقين الذين أظهروا إسلامهم وأخفوا كفرهم وبغضهم وعداوتهم للإسلام والمسلمين، والذين بسبب رحمته ﷺ لم يروا العذاب في الحياة الدنيا، فاختلطوا بالمؤمنين وحضروا صلاتهم في المسجد، ولم يقم الرسول الكريم بفضح أمرهم، بل اتجه إلى مسايستهم والرحمة بهم لعلهم ينالوا رضوان الله تعالى عليهم في الدنيا والفوز بالجنة والخروج من الدرك الأسفل من النار في الآخرة، في حين تناول المبحث الرابع والاخير حرص الرسول الكريم ﷺ على إسلام أهل الكتاب من اليهود والنصارى والخروج بهم من غضب الله عليهم وضلالتهم إلى مغفرةٍ منه جل في علاه ورحمةٍ بهم من الرحمة المهداة ﷺ ليحمل المبحث عنوان «هدي الرحمة المهداة في استمالة وكسب أهل الكتاب «، ثم خُتِمَ البحثُ بالإشارة إلى أهم وأبرز النتائج التي خلص إليها.

وختامًا لا يسع الباحث إلا أن يتقدم بالشكر والتقدير لكل من ساهم وسيساهم في إقامة وإنجاح هذا المؤتمر الذي سيكون له -بإذنه تعالى- الأثر البالغ في تصحيح المفاهيم الخاطئة التي ضللت رؤية العالم لهذا الدين القويم، سائلًا الباري عز وجل أن يوفقكم ويسدد خطاكم لما فيه خير الإسلام والمسلمين.

تمهيد

وُلِدَ الرحمة المهداة سيد المرسلين ورسول رب العالمين محمد ﷺ بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول من عام الفيل[١]، وقيل يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من عام الفيل[٢]، الموافق العشرين أو الثاني والعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١م[٣]. وقد فاض قلبه الشريف بالرحمة مذ كان طفلًا، كيف لا وقد غسلته الملائكة بها يوم كان مسترضعًا عند حليمة السعدية، وكان قبلها قد ولد يتيم الأب فلم يحظ بدفئ الأبوة وحنانها، وحين بلغ من العمر ست سنوات ذهب مع أمه آمنة بنت وهب لزيارة قبر أبيه في يثرب فماتت أمه في طريق العودة عند منطقة الأبواء بين مكة ويثرب[٤] ففقد حنان الأم وعطفها، ثم فقد حنان جده عبدالمطلب وعطفه عليه بعد وفاته يوم كان عمره ﷺ ثمان سنوات[٥]. ثم هذبه الفقر حين عاش معدمًا يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة، وكانت مهنة رعي الغنم التي امتهنها رسول الله ﷺ في مقتبل شبابه قد أشربت قلبه الشريف بالرحمة لما لهذه المهنة من أثر في اكتساب صاحبها الرحمة بالحيوان والعطف عليه، وبطبيعة

(١) المبارك كفوري، صفي الرحمن: سيرة رسول الله ﷺ الرحيق المختوم -، ط٢، دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق - بيروت: ٢٠٠١م)، ص٥٣.
(٢) ابن هشام، أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت: ٢١٣هـ): السيرة النبوية، ط٢، طبعة جديدة منقحة ومرتبة، دار مكتبة المعارف، (بيروت: ٢٠١٣م)، ص٨٣.
(٣) المرجع السابق: ص٥٣.
(٤) المصدر السابق: ص٨٧.
(٥) المصدر نفسه: ص٨٧.

الحال فمن يكون رحيمًا بالحيوان لا بد وأن يكون رحيمًا بالإنسان الذي أكرمه خالقه وفضله على جميع من خلق. فعاش ﷺ حياة الفقراء واليتامى، يشعر بمشاعرهم ويتألم بآلامهم، فأكسبه ذلك حسًا مرهفًا وشعورًا نبيلًا دفعه لمباشرة العمل بالتجارة، فخالط الناس وعاشر أصنافهم وخبر أخلاقهم. ثم حبب الله إليه الخلاء ليعتزل الناس، ويخلو بنفسه يراجعها ويحاسبها، ويعتني بقلبه تزكيةً وتطهيرًا، ويتجه إلى ربه عز وجل تعبدًا وتلقيًا وتفكيرًا [1].

وفي غار حراء أكرم الله نبيه بأن أنزل عليه كتاب الرحمة على قلبه الشريف ليكون رسول رحمةٍ من إله الرحمة، فضم القرآن بين دفتيه دعواتٍ كثيرةٍ إلى الرحمة بالمخلوقات من إنسٍ وجانٍ وحيوانٍ ونبات، إذ دعا إلى الرحمة بالناس مسلمهم وكافرهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقال عز من قائل: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر:٥٣]، وقال جل في علاه: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩] فتشرب قلب الصادق الأمين بهذه الآيات وبمثلها معها من الأحاديث النبوية الشريفة التي اشتملت على الرحمة بالناس، منها قوله ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)[2]، وقوله ﷺ: (إن لله مائة رحمة، فمنها رحمةٌ بها يتراحم الخلق بينهم، وتسعةٌ وتسعون ليوم القيامة)[3]، وقوله عليه السلام: (من لا يَرحم لا يُرحم)[4]، وقوله ﷺ: (من لا يرحم الناس لا

(١) ياقوت، محمد مسعد: نبي الرحمة، تقديم: فريد عبدالخالق، ط١، الزهراء للإعلام العربي، (القاهرة: ٢٠٠٧م)، ص٩.

(٢) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى (ت:٢٧٩ه): سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، (بيروت: ١٩٩٨م)، رقم الحديث: ١٩٢٤، ٣/٣٨٨، وقال عنه حديث حسن صحيح.

(٣) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت:٢٦١هـ): صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت: د.ت)، رقم الحديث: ٢٧٥٣، ٤/٢١٠٨.

(٤) البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري (ت:٢٥٦هـ): =

يرحمه الله عز وجل)[1]، وقوله ﷺ: (يا أيها الناس إنما أنا رحمةٌ مهداةٌ)[2]، وغيرها من الأحاديث في هذا المجال[3].

جاء رسول الله ﷺ برسالة الإسلام، رسالة الإنسان، رسالة الرحمة الإلهية، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، من عبادة الأحجار التي لا تضر ولا تنفع إلى عبادة الله الواحد الأحد. وسعى جاهدًا ليؤمن الناس جميعًا برسالته، فقضى في مكة ثلاث عشرة سنةً يدعو أهلها إلى الإسلام، وكان رحيمًا بهم عطوفًا عليهم حريصًا على إسلامهم، لكن زعماءها أبوا إلا المكابرة والجحود برسالته ﷺ فضيقوا عليه وعلى أصحابه ونالوهم بأنواع العذاب، مما أدى به إلى أن يهاجر وأصحابه إلى المدينة المنورة، ليدخل الإسلام طورًا جديدًا، فبعد أن كان في مكة دينًا مضطهدًا مشردًا بأتباعه، أمسى في المدينة دينًا لدولةٍ لها كيانها وقوتها وشوكتها في شبه الجزيرة العربية، وكان النبي ﷺ حريصًا على هداية أهلها وبقية قبائل شبه الجزيرة العربية، وكانت له عليه السلام وقفاتٌ كثيرةٌ تبين رحمته بالناس مؤمنهم وكافرهم، وبدورنا سنسلط الضوء على رحمته ﷺ بالمخالفين له في مسيرة دعوته إلى الله في مرحلتيها المكية والمدنية.

= صحيح البخاري، ط١، دار الشعب، (القاهرة: ١٩٨٧م)، رقم الحديث: ٥٩٩٧، ٩/٨؛ المصدر نفسه: رقم الحديث: ٢٣١٨، ١٨٠٨/٤.

(١) مسلم: المصدر نفسه، رقم الحديث: ٢٣١٩، ١٨٠٩/٤.

(٢) الحاكم، أبو عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم النيسابوري (ت:٤٠٥هـ): المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٩٠م)، رقم الحديث: ١٠٠، ٩١/١؛ وصححه الألباني، أبو عبدالرحمن محمد ناصر الدين (ت:١٤٢٠هـ): سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ط١، مكتبة المعارف، (الرياض:١٩٩٥م)، رقم الحديث: ٤٩٠، ٨٨٢/١.

(٣) للمزيد ينظر: ابن طولون الصالحي، شمس الدين محمد بن علي بن طولون الدمشقي الصالحي (ت:٩٥٣هـ): الأربعين في فضل الرحمة والراحمين، تحقيق وتخريج: محمد خير رمضان يوسف، ط١، دار ابن حزم، (بيروت: ١٩٩٥م).

المبحث الأول
رحمة النبي ﷺ في دعوته وتعاليمه

فاضت دعوة النبي ﷺ والتعاليم التي جاء بها بالرحمة بكل المخلوقات ومنهم بنو البشر مسلمهم وكافرهم، فالإسلام رحمةٌ في ذاته ورحمةٌ في تعاليمه ورحمةٌ في أحكامه. وقد خط الله تعالى لنبيه أسلوب دعوته الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، فقال عز من قائل: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]. ولعل تدرج دعوته ﷺ في قومه من خلال دعوة أهل بيته والمقربين إليه بدايةً، ثم إنذار عشيرته المقربين من خلال أمر الله له في ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٤]، ثم الجهر بالدعوة والصدع بها من خلال قوله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر:٩٤]، كانت رحمةً بحد ذاتها، ليتسنى للناس تقبل الدين الجديد، ففي بيئةٍ مثل مكة تَغَرَّسَ الشرك بأهلها في أعماق جذورهم، كان من الصعب بمكانة أن يَتركوا دين آبائهم وأجدادهم الذي أدى بهم إلى زعامةٍ دينيةٍ وسياسيةٍ على القبائل من حولهم، وينصاعوا لدينٍ جديدٍ قد يؤدي بهم -حسب تصورهم- إلى فقدان تلك الزعامة، لذلك كان من الأهمية بمكان أن تتسم دعوته ﷺ وتعاليمه بالتدرج في نشرها وفرضها وتطبيقها، قال تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء:١٠٦]، فنزول القرآن شيئًا بعد شيءٍ،

آيةً بعد آيةٍ، وحُكمًا بعد حُكم، يُعدُ بحد ذاته رحمةً للعباد، إذ أن الناس قبل الإسلام كانوا في إباحةٍ مطلقةٍ، فلو نزل عليهم القرآن دُفعةً واحدةً لثقُلت عليهم التكاليف، ولنفرت قلوبهم عن قبول ما فيه من الأوامر والنواهي، وفي ذلك تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (... إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدًا...)[1].

من هنا بدأ رسول الله ﷺ دعوته في أهل مكة، وكان ﷺ رحيمًا بهم حريصًا على هدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وعلى الرغم مما لاقاه منهم من استهزاءٍ وتكذيبٍ واضطهادٍ، إلا أنه ﷺ كان رحيمًا بهم لعل الله أن يهديهم إلى الإسلام، وقد تجلى ذلك واضحًا بعد عودته ﷺ حزينًا من ما لاقاه من ثقيف أثناء رحلته إلى الطائف في السنة العاشرة للبعثة، إذ جاءه جبريل عليه السلام برفقة ملك الجبال فناداه جبريل فقال له: (إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم)، ثم ناداه ملك الجبال فسلم عليه ثم قال: (يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا)[2].

بهذا المنهج السمح الرحيم سار رسول الله ﷺ في دعوته إلى الله تعالى، وكان صلوات ربي وسلامه عليه يتحرى أيسر الطرق وأسهلها في فرض تعاليم الدين الإسلامي وأحكام الشريعة الإسلامية، وكل ذلك كان رحمةً منه بالناس، وفي ذلك تقول عائشة أم المؤمنين: (ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس منه،

(١) البخاري: صحيح، رقم الحديث: ٤٩٩٣، ٦/٢٢٨.
(٢) البخاري: صحيح، رقم الحديث: ٣٢٣١، ٤/١٤٠.

وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها)[1]. وكان ﷺ يأمر الصحابة بالتبشير والتيسير في إيصال رسالة الإسلام، والابتعاد عن التنفير والتعسير في إيصالها، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: (يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا)[2]، وهذا نهج ربانيٌّ أكد عليه المولى عز وجل في كتابه العزيز، بقوله جل في علاه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وكل ذلك رحمةً بالناس لتنزل عليهم تعاليم الإسلام كالغيث على قلوبهم فيألفوها وتطهرهم بها وتُذهب عنهم رجس الأوثان والأصنام.

من ذلك كله نلمس الحنيفية السمحة التي بُعث بها الحبيب المصطفى، فجاء رحمةً للعالمين بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، بل ونلمس الرحمة في أحكام قد سكت الله عنها لئلا تُفرض على المسلمين، وفي ذلك يقول ﷺ: (إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم حرمات فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا

عنها)[3]، وقوله ﷺ للرجل الذي سأله عن الحج: أفي كل عام؟ فأجابه ﷺ: (لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم)[4]، وقوله ﷺ: (لولا أن أشق على أمتي، أو على الناس - لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة)[5] وفي رواية (عند كل وضوء)[6]. ولما خَبُرَ ﷺ بعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه

(١) المصدر نفسه: رقم الحديث: ٣٥٦٠، ٤/ ٢٣٠.
(٢) المصدر نفسه: رقم الحديث: ٦٩، ١/ ٢٧.
(٣) الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت:٨٠٧هـ): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: محمد عبدالقادر أحمد عطا، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت: ٢٠٠١م)، ١/ ٢٣٢؛ وقال عنه الألباني في تخريجه لأحاديث كتاب الإيمان لابن تيمية، ط٤، المكتب الإسلامي، (بيروت:١٩٩٣م)، ص٤٤، حديث حسن بشاهده.
(٤) مسلم: صحيح، رقم الحديث: ١٣٣٧، ٢/ ٩٧٥.
(٥) البخاري: صحيح، رقم الحديث: ٨٨٧، ٢/ ٥.
(٦) المصدر نفسه: رقم الحديث: ١٩٣٣، ٣/ ٤٠.

يكثر من الصيام والقيام الذي قد يؤدي إلى غبن حق الجسد والأهل وأن الرحمة تقتضي إعطاء الحق لهما قال ﷺ لعبدالله: (يا عبدالله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل فقلت: بلى يا رسول الله، قال فلا تفعل، صم وأفطر وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقا وإن لعينك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا وإن لزورك عليك حقا)[1] ولما شد عبدالله رضي الله عنه على الصيام والقيام وبيّن للنبي ﷺ قدرته على الصيام والقيام، أجاز له رسول الله صيام نبي الله داود عليه السلام وهو صيام نصف الدهر، فلما بلغ عبدالله في السن قال رضي الله عنه: (يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ)[2]. ومن ذلك أيضًا رحمته ﷺ في أن لا تفرض على أمته صلاة قيام الليل فتثقل عليهم، فلم يخرج إلى الصحابة بعد ثلاث ليال قاموها مع نبيهم ﷺ، فمع تأكيده ﷺ على قيام الليل إلا أنه لم يشأ أن تُفرض على أُمته بل تركها سُنةً لمن أراد قيامها وذلك رحمةً منه ﷺ بالأمة[3]. من خلال ذلك كله نلحظ الرحمة الواسعة التي ميزت دعوة النبي ﷺ والتعاليم التي جاء بها من الرحمن الرحيم، هذه الرحمة التي كان لها الأثر الكبير في استمالة الناس وتقبلهم لدعوته ﷺ والتي كانت السمة الأبرز لهذا الدين القويم.

(١) المصدر نفسه: رقم الحديث: ١٩٧٥، ٣/٥١.
(٢) المصدر نفسه: رقم الحديث: ١٩٧٥، ٣/٥١.
(٣) ينظر في ذلك: المصدر نفسه، رقم الحديث: ٩٢٤، ٢/١٣؛ مسلم: المصدر السابق، رقم الحديث: ٧٦١، ١/٥٢٤.

المبحث الثاني
هدي الرحمة المهداة في استمالة وكسب المشركين

على الرغم من كل ما لاقاه الرسول الكريم محمد ﷺ من سخريةٍ واستهزاءٍ بشخصه الكريم وتشويهٍ لتعاليمه وتكذيبها وتشبيهها بأساطير الأولين، ومن اضطهادٍ لشخصه الكريم ولصحابته الكرام رضي الله عنهم من قبل المشركين في المرحلة المكية، ومن تكذيبٍ وقتال له في ساحات الوغى ومحاولات لاغتياله ﷺ من قبلهم في المرحلة المدنية، إلا أنه ﷺ كان حريصًا كل الحرص على هدايتهم وإسلامهم وذلك من منطلق الرحمة التي كانت من أهم وأبرز صفاته ﷺ، فنراه يدعو هؤلاء المشركين للإيمان به وبما جاء به من الله تعالى لئلا يكونوا حطبًا لنار جهنم يوم القيامة، ولو كان ذلك آخر يوم في حياة أحدهم كما حصل مع عمه أبي طالب وهو على فراش الموت، (إذ جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية أترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾ [التوبة:١١٣]

وأنزل الله في أبي طالب قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص:٥٦][1].

سعى رسول الله ﷺ بما عرف عنه من رحمةٍ وحرصٍ على إسلام الناس أجمعين إلى العمل على استمالة وكسب هؤلاء المشركين حتى يكونوا مؤمنين،وقد تجلى ذلك في العديد من المواقف التي سجلتها لنا كتب الحديث والسيرة النبوية، ومن تلك المواقف عرض الرسول ﷺ الإسلام على القبائل التي كانت تأتي مكة في موسم الحج، قال ابن اسحاق:(فكان رسول الله ﷺ على مثل ذلك من أمره يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، يعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله تعالى من الهدى والرحمة)[2]، فكان ﷺ لا يسمع بقادمٍ يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله، وعرَض عليه ما عنده[3]، وإن دل هذا على شيءٍ فإنه يدل على حرص النبي ﷺ على إسلام الناس أجمعين ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

وقد توجت هذه الدعوة بالهجرة إلى المدينة وقبلها بخروج الرسول ﷺ إلى الطائف في السنة العاشرة للبعثة، فعلى الرغم من ما لاقاه الرسول الكريم من أهل مكة والطائف إلا أنه ﷺ كان رحيمًا بهم حريصًا على إسلامهم وقد تجلى ذلك في رده على جبريل وملك الجبال في طريق عودته إلى مكة عندما استأذنه ملك الجبال أن يطبق الأخشبين على أهل مكة فقال ﷺ: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا)[4]، فقال له ملك الجبال: (أنت كما سماك ربك رؤوفٌ رحيمٌ)[5].

(١) البخاري: صحيح، رقم الحديث: ٤٧٧٢، ٦/ ١٤١.
(٢) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني (ت:١٥١ه): سيرة ابن اسحاق (كتاب المغازي والسير)، تحقيق: سهيل زكار، ط١، دار الفكر، (بيروت:١٩٧٨م)، ص٢٣٢.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ص٢١٥.
(٤) البخاري: صحيح، رقم الحديث: ٣٢٣١، ٤/ ١٤٠.
(٥) الصالحي: محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت: ٩٤٢هـ): سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد،=

فأي رحمةٍ هذه من نبي الرحمة محمد ﷺ، فعلى الرغم من حالة الاسى المرير على ثقيف والحزن العميق الذي حمله ﷺ في قلبه من ما لاقاه منهم، وعلى الرغم من كل ما تعرض له ﷺ من أذى واضطهاد من أهل مكة إلا أنه كان رحيمًا بهم. ثم إن رحمته ﷺ بأهل الطائف تجددت يوم انصرف عن حصارهم في السنة الثامنة للهجرة ونزل الجعرانة، فقال له رجل من أصحابه: يا رسول الله أدع عليهم، فقال رسول الله ﷺ: (اللهم اهد ثقيفًا وآت بهم)[1]. إن هذه الرحمة بأهل مكة والطائف هي التي دفعت المشركين في المدينتين بعدما أمسوا مشركين بأن يصبحوا مسلمين يدافعون عن بيضة الإسلام، وهذا ما حصل يوم ارتدت معظم القبائل في شبه جزيرة العرب -في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه- إلا مكة والمدينة والطائف.

وفي غزوة أُحد التي كانت من أصعب الغزوات على الرسول ﷺ لما لاقاه وأصحابه في هذه الغزوة، إذ كسرت رباعيته ﷺ وجُرِحَ وجهه الشريف وكُسرت البيضة التي كانت على رأسه[2]، وأستشهد من أصحابه سبعون رجلًا، ومثَّلَ المشركون بهم فقطعوا آذانهم وأنوفهم وشقوا بطونهم، ومن هؤلاء الشهداء الذين مُثِّل بهم حمزة بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ، فأمام كل ذلك تتجلى رحمته ﷺ بهؤلاء المشركين إذ يرفض الانتقام الذي توعد به الصحابة قريشًا إن أمكنهم الله منهم في قابل الأيام بعد ما رأوا من حزن النبي ﷺ على عمه حمزة رضي الله عنه، إذ قال الصحابة رضي الله عنهم يومها: (والله لئن أظفرنا الله بهم يومًا من الدهر لنُمَثِّلَنَّ بهم مثلةً لم يمثلها أحدٌ من العرب، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

= تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٩٣م)، ٢/ ٢٤٠؛ ابو شُهبة، محمد بن محمد بن سويلم (ت: ١٤٠٣هـ): السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ط٨، دار القلم، (دمشق: ٢٠٠٦م)، ١/ ٤٠٤.

(١) ابن هشام: المصدر السابق، ص٦٤٦.

(٢) ينظر البخاري: المصدر السابق، رقم الحديث: ٤٠٧٥، ٥/ ١٣٠؛ مسلم: صحيح، رقم الحديث: ١٧٩٠، ٣/ ١٤١٦.

[النحل:١٢٦]، فعفا رسول الله ﷺ، وصبر ونهى عن المثلة)[١]. ويومها سأله أحد الصحابة أن يدعو على العدو وأن يستنزل اللعنة عليهم، فأجاب ﷺ: (إني لم أُبعث لعانًا، ولكني بُعثتُ داعيًا ورحمةً، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون)[٢]. فتجلت رحمة النبي ﷺ في هذا الموقف من خلال الدعاء للمشركين بالهداية والاعتذار عنهم بالجهالة، إذ أشفق عليهم ورحمهم ودعا لهم بسبب جهلهم بحاله ومقام كماله[٣].

وأمام كل ما لاقاه الرسول ﷺ من مشركي مكة في المرحلتين المكية والمدنية، كان بإمكانه أن ينتقم منهم بعد أن أظفره الله عليهم ومنَّ عليه بفتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، لكنه ﷺ عاملهم بخلاف ما كانوا عاملوه به وربما بخلاف ما كانوا سيعاملونه وأصحابه لو كان النصر حليفهم، فنراه ﷺ يأمر أصحابه بحسن معاملة أهل مكة وتجنب الدخول في مواجهة عسكرية معهم أثناء الفتح، ثم نراه يأتلف قلب أبي سفيان إلى الإسلام بأن يعطي الأمان لكل من دخل داره ثم يأتلف قلوب أهل مكة كلهم برحمته عليهم وإعطاءهم الأمان لكل من أغلق عليه بابه ولكل من دخل المسجد الحرام، وما كانت وصاياه تلك إلا رحمةً بأهل مكة لكي يضمن دخولهم الإسلام ولا يتعرضوا للقتل الذي قد تفضي إليه أية مقاومة للجيش الإسلامي، ولكي يكون يوم الفتح يوم مرحمةٍ لقريش بدلًا من أن يكون يوم ملحمةٍ قد تفنيهم عن بُكرة أبيهم، وهذا ما أكد عليه الرسول الكريم لأصحابه عندما قال

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ص٤٣١؛ ابن ابي شيبة، ابو بكر عبدالله بن محمد (ت: ٢٣٥هـ): كتاب المغازي، تحقيق: عبدالعزيز بن إبراهيم العمري، ط٢، دار اشبيليا للنشر والتوزيع، (الرياض: ٢٠٠١م)، ص٢٢٠.

(٢) القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض (ت: ٥٤٤هـ): الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ط٢، دار الفيحاء، (عمان: ١٩٨٦م)، ٢٢١/١؛ ابن سيد الناس، أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن أحمد (ت: ٧٣٤هـ): عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، ط١، دار القلم، (بيروت: ١٩٩٣م)، ٣٩٨/٢.

(٣) الهروي، نور الدين أبي الحسن علي بن سلطان محمد (ت: ١٠١٤هـ): شرح الشفا، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت: ٢٠٠٠م)، ٢٤٦/١.

سعد بن عبادة ﷺ: (اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشًا)، فقال رسول الله ﷺ: (اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله فيه قريشا)[1].

هكذا تجلت رحمته ﷺ في يوم الفتح العظيم بالعديد من المواقف التي إن دلت على شيء إنما تدل على مدى الرحمة الواسعة - من لدن النبي ﷺ - التي شملت مشركي قريش، وعلى مدى نجاح سياسة الرحمة التي انتهجها الرسول الكريم في تعامله مع المشركين، هذه السياسة التي آتت أكلها مع من بقي من زعماء قريش كعتاب بن أسيد والحارث بن هشام وأبي سفيان وغيرهم من الذين كان من الصعب أن يتقبلوا الإسلام لولا ما رأوه ولمسوه من حسن معاملة النبي ﷺ ورأفته بهم ورحمته عليهم مع قدرته ﷺ على قتلهم، فقد صبر رسول الله ﷺ كثيرًا على أبي سفيان وتقبَّلَ إسلامه التدريجي سيما في نطقه شهادة الحق شهادة الإسلام والإيمان الفعلي والشهادة به ﷺ رسولًا من الله تعالى، إذ روي أن النبي ﷺ لما نزل مر الظهران في غزوة الفتح أتاه أبو سفيان ودخل معسكر المسلمين بحماية العباس بن عبدالمطلب ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ، قال: (ويحك يا أبا سفيان!، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟) قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئًا بعد، قال: (ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟) قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا. فقال له العباس: ويحك! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك. قال: فأسلم وشهد شهادة الحق)[2]. ثم عفا نبي الرحمة عن الثلاثة -أبو

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢/٢٢١.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ص٥٩٩-٦٠٠؛ ابن سيد الناس: المصدر نفسه، ٢/٢١٨؛ وصححه

سفيان وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام - بعد ذلك لِما دار بينهم من حوارٍ أطلعه الله تعالى عليه، فروي (أن رسول الله ﷺ، لما دخل الكعبة عام الفتح أمر بلالًا أن يؤذن، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيدًا ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئًا، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى، فخرج عليهم النبي ﷺ، فقال: قد علمت الذي قلتم، ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول أخبرك)[1].

كما ونلمس الرحمة مع العفو عند المقدرة أيضًا عندما عفا رسول الل ﷺ عن أهل مكة عامة بخطبته يوم الفتح فقال لهم: (يا معشر قريش، ما ترون أني فاعلٌ بكم؟) قالوا: خيرًا، أخٌ كريم، وابن أخ كريم، قال: (فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [يوسف:٩٢] اذهبوا فأنتم الطلقاء)[2].

كما شملت رحمة النبي ﷺ أسرى المشركين الذين دعا رسول الله إلى حسن معاملتهم تارةً وإلى المن عليهم بإطلاق سراحهم تارة أخرى، كما حدث مع أسرى بدر الذين أقبل بهم الرسول ﷺ إلى المدينة وفرقهم بين أصحابه، فكان الصحابة رضي الله عنهم يحسنون إليهم فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصوا الأسرى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ اياهم بهم، فكانت ما تقع في يد رجلٍ منهم كِسرةُ خُبزٍ الا اعطاها الاسير،

الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم الحديث: ٣٣٤١، ٧/١٠٢٥-١٠٣٠.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ص٦٠٥؛ وينظر: المبارك كفوري: الرحيق المختوم، ص٤١٨-٤١٩.

(٢) ابن هشام: المصدر السابق، ص٦٠٥؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢/٢٢٦؛ وينظر: المبارك كفوري: المرجع السابق، ص٤١٨.

الذي كان يستحيي صنيعهم فيردها على أحدهم، فيعيدها الصحابي إلى الأسير دون أن يمسها[1]. ثم منَّ رسول الله على هؤلاء الأسرى فأخذ منهم الفداء، وكان الفداء أربعة الآف درهم للرجل، إلى ألف درهم، والذي لم يكن عنده فداء، دفع إليه عشرةً من غلمان المدينة يعلمهم القراءة والكتابة مقابل إطلاق سراحه، ومنَّ رسول الله على عدد من الأسرى فأطلقهم بغير فداء، منهم: أبو العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، والمطلب بن حنطب، وصيفي بن أبي رفاعة، وأبو عزة الجمحي[2]. هذه الرحمة من نبي الرحمة كان لها الأثر الكبير في استمالة وكسب البعض من الأسرى إلى الإسلام، كأبي العاص بن الربيع، الذي بعثت زينب في فداءه بمالٍ وقلادةٍ لها كانت خديجة بنت خويلد ﵂ أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى بها، فلما رأى الرسول ﷺ القلادة رقَّ لها رقةً شديدةً، وقال للصحابة: (إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها، فافعلوا) فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها، مقابل أن يخلي سبيل زينب ويرسلها إلى المدينة، ففعل، فأقام أبو العاص بمكة، وأقامت زينب عند رسول الله ﷺ بالمدينة، حتى إذا كان قبيل الفتح، أُسِرَ أبو العاص من سريةٍ لرسول الله ﷺ بينما كان خارجًا بتجارةٍ لرجالٍ من قريش إلى الشام، فقدموا به المدينة فاستجار بزينب فأجارته، فمنَّ عليه رسول الله ﷺ ثانيةً، وذلك بعد أن استشار أفراد السرية، فوافقوا وردوا عليه ماله بأسره، فما كان من أبي العاص -بعد الذي رآه من حسن معاملة رسول الله ﷺ ورحمته به- إلا أن عاد إلى مكة وأعاد إليهم أموالهم، ثم أعلن إسلامه وهاجر إلى المدينة[3].

وقد آتت رحمة النبي ﷺ بسبايا هوازن يوم حنينٍ في السنة الثامنة

(١) ابن هشام: المصدر نفسه، ص٣٣٧.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٤٥؛ المبارك كفوري: المرجع السابق، ص٢٣٣-٢٣٤.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ص٣٤١-٣٤٢، ٣٤٤.

للهجرة أكلها كذلك، إذ منَّ عليهم رسول الله وأطلق سراحهم، وبفعله هذا منَّ المسلمون على ما عندهم من السبايا فاطلقوا سراحهم أيضًا، فأسلمت هوازن بأجمعها، ثم سألهم ﷺ عن مالك بن عوف ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال: (أخبروا مالكًا أنه إن أتاني مسلمًا رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل)[1] فأخبروه بذلك، فخرج من الطائف وأتى النبي ﷺ فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل، فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه، وأنشد قائلًا:

مـا إن رأيتُ ولا سَمِعـتُ بِمثلِـهِ في الناسِ كُلِّهِم بِمِثلِ مُحَمَّـدِ

أوفى وأعطى للجزيلِ إذا اجتُدي وَمَتى تَشأ يُخبِركَ عمَّا في غَدِ[2]

(١) المصدر نفسه: ص٦٤٨.
(٢) المصدر نفسه: ص٦٤٨.

المبحث الثالث

هدي الرحمة المهداة في استمالة وكسب المنافقين

كان المسلمون في المرحلة المكية قلةٌ قليلةٌ، مستضعفين ومضطهدين من قريش، لذلك لم يدخل الإسلام في هذه المرحلة إلا من كان مسلمًا صادقًا بإسلامه، مؤمنًا حق الإيمان بصدق النبي ﷺ وصدق ما جاء به من الله تعالى، مستعدًا لتحمل الأذى والتضحية في سبيل الإسلام. وبعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وتأسيس دولة الإسلام فيها أصبح المسلمون قوةً لا يستهان بها، أعزها الله تعالى بنصره على قريش ويهود المدينة في العديد من الغزوات والسرايا، لذلك بدأ البعض من سكان المدينة يعتنق الإسلام لا عن رغبةٍ به ولا عن إيمانٍ برسوله ﷺ، بل خوفًا من قوة المسلمين ومجاراةً للواقع الذي فُرِضَ عليهم بهجرة النبي ﷺ وإيمان معظم قبيلتي الأوس والخزرج. لذلك اعتنق هؤلاء المنافقون الإسلام ظاهرًا وأخفوا الكفر والفسوق والعصيان باطنًا، وكانت لهم قوة لا يستهان بها سيما في زرع الفتنة بين المؤمنين وتوهين قوتهم في الغزوات والسرايا التي شاركوا فيها.

لقد شكل المنافقون عامل ضعفٍ وانقسام في صفوف المسلمين، وكان خطرهم يبرز في الأوقات الحرجة وعند الأزمات، إلا أن رسول الله ﷺ على الرغم من ذلك عاملهم على قدم المساواة من المسلمين، وحاول بأقصى

طاقته أن يتألف قلوبهم، لأن هؤلاء الأفراد كانت تربطهم روابط عشائرية متينة ببقية المسلمين من الأوس والخزرج، وأن القسوة عليهم ومعاقبتهم بعد أن أظهروا الإسلام قد تؤدي إلى حدوث الانقسام والتفكك في صفوف المسلمين[1]. لذلك سعى رسول الرحمة ﷺ إلى استمالة هؤلاء المنافقين وكسبهم إلى صف المؤمنين، وبسبب رحمته ﷺ لم يروا العذاب في الحياة الدنيا، فاختلطوا بالمؤمنين وحضروا صلاتهم في المسجد، ولم يقم الرسول الكريم بفضح أمرهم للصحابة -إلا ما كان من أمر حذيفة بن اليمان الذي أطلعه الرسول الكريم على أسمائهم حتى سمي بصاحب سر رسول الله ﷺ[2] بل اتجه إلى مسايستهم والرحمة بهم لعلهم ينالوا ﷺ في الدنيا والفوز بالجنة والخروج من الدرك الأسفل من النار في الآخرة.

وقد كانت للرسول ﷺ العديد من المواقف التي بينت رحمته ﷺ بهؤلاء المنافقين من خلال حرصه على إيمانهم وكسبهم إلى صف المؤمنين، فعفا عنهم في العديد من المناسبات سيما عن زعيمهم عبدالله بن أُبي بن سلول الذي كان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم، لكن هجرة الرسول الكريم ﷺ ووصوله المدينة المنورة وتسلمه الزعامة الدينية والسياسية فيها، وانصراف قوم ابن سلول عنه إلى الإسلام حال دون ذلك، مما دفع بابن سلول أن يتخذ هذا الموقف المعادي منه ﷺ، إذ رأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه مُلكًا، وأن قومه قد أبوا إلا الإسلام، لذلك دخل فيه كارهًا مُصرًا على نفاقٍ وضعنٍ[3]. وقد كانت لعبدالله بن سلول العديد من المواقف التي حاول من خلالها الطعن بالإسلام وبالمسلمين والتخذيل بهم

(١) الملاح، هاشم يحيى: الوسيط في السيرة النبوية، ط١، دار النفائس، (عمّان: ٢٠٠٣م)، ص٣٥١-٣٥٢.

(٢) ابن عبدالبر، ابو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري القرطبي (ت: ٤٦٣هـ): الاستيعاب في معرفة الاصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط١، دار الجيل، (بيروت: ١٩٩٢م)، ٣٣٥/١.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ص٣٠٢؛ وينظر: الملاح: الوسيط في السيرة النبوية، ص٣٥١.

وتوهين صفوفهم والتحالف مع أعداءهم من قريش ويهود المدينة، من ذلك دوره في غزوة بني قينقاع عندما ألح على الرسول ﷺ أن يحسن فيهم وتجرئه عليه ﷺ وإدخال يده في جيب درع النبي ﷺ، ثم دوره في غزوة أحد ومحاولته تخذيل جيش المسلمين بانسحابه بثلاثمائة مقاتل ممن هم على شاكلته بحجة أن رسول الله ﷺ لم يأخذ بمشورته في القتال داخل المدينة، وتحريضه لبني النضير بأن لا ينزلوا عند حكم النبي ﷺ فيهم بأن يخرجوا من المدينة ودعوته لهم بأن يثبتوا ويتمنعوا ولا يخرجوا من ديارهم وقوله لهم إن معي ألفا مقاتل يدخلون معكم حصونكم فيموتون دونكم، فأنزل الله فيه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر:١١]، ثم تشكيكه يوم الأحزاب بقوة المسلمين -لما رآه وأصحابه المنافقون من كثرة الأحزاب وتكالبهم على المسلمين وحصارهم للمدينة- وقوله فيما أنزله الله فيه ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الاحزاب:١٢]، ثم إثارته الشبهات حول الرسول الكريم ﷺ والتشهير به بعد زواجه ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها سيما وأنها كانت زوجته الخامسة وزوجة ابنه زيد بن حارثة بالتبني، ودوره في غزوة بني المصطلق عندما قال قولته المشهورة والتي فضحه الله بها بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون:٨]، وتشهيره بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك، وغيرها من المواقف التي قام بها هذا المنافق. لكن رسول الرحمة ومن منطلق توحيد الامة والعطف بالناس والرأفة بهم ورغبة منه ﷺ في احتواء الأزمات، فقد عفا عن ابن سلول في جل هذه المواقف بل وصلى عليه عند موته، فقد رُوِيَ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: رضي الله عنه لما مات عبدالله بن أُبيّ بن سلول، دُعيَ

له رسول الله ﷺ ليُصلي عليه فلما قام رسول الله ﷺ وثبتُ إليه فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أُبيّ؟ وقد قال يوم كذا وكذا، كذا وكذا، أُعدد قوله، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: (أخِر عني يا عمر)، فلما أكثرتُ عليه قال: (إني خُيّرت فاخترت، قد قيل لي: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:٨٠] لو أعلم أني إن زدتُ على السبعين يُغفر له، لزدتُ عليها)، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيرًا حتى نزلت الآية من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة:٨٤]، قال عمر: فعجبتُ بعدُ من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذٍ والله ورسوله أعلم [(١)]. من هنا نجد حرص الرسول ﷺ على هداية هؤلاء المنافقين وإخراجهم من النفاق إلى الإيمان حتى لو كان ذلك في آخر لحظة من حياتهم بل وبعد مماتهم. لكن هذا التسامح من الرسول ﷺ مع المنافقين والذي أملاه عليه حرصه على وحدة الصف بين أهل المدينة لم يمنع من فضح دسائسهم وأعمالهم التي تولى القرآن الكريم بيان أبعادها ومخاطرها على الجماعة المؤمنة في العديد من الآيات القرآنية[(٢)].

كان حريًا بهؤلاء المنافقين أن يؤمنوا بالله ورسوله حق الإيمان بعدما أراهم الله من آياته على يد رسوله ﷺ ما يثبت به فؤاد المسلم الصادق بإسلامه المؤمن حق الايمان بصدق الصادق المصدوق وصدق ما جاء به من الله تعالى، لكنهم بقوا في غيّهم ونفاقهم حتى فضحهم الله تعالى في غزوة تبوك التي كان التخلف عنها من صفات النفاق والمنافقين، إذ كان خروج الرسول ﷺ في هذه الغزوة لمواجهة عدو ذو كُثرةٍ وبأسٍ شديدٍ، وكان وقت الخروج في فصل القيظ الشديد، وكان الناس في عُسرةٍ وجدبٍ من البلاد

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ص٦٨١؛ البخاري: صحيح، رقم الحديث:١٣٦٦، ٢/ ١٢١.
(٢) الملاح: الوسيط في السيرة النبوية، ص٣٧٧.

وقلةٍ من الظهر مما يركبون عليه، وكانت الثمار قد طابت، فكان الناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيه، ومع هذا كانت المسافة بعيدة، والطريق وعرةٌ صعبةٌ [1]. وقد تجلى النفاق وانفضح أمر المنافقين في تخلفهم عن الخروج مع النبي ﷺ في هذه الغزوة، فهذا الجد بن قيس يقول له الرسول ﷺ: (يا جد، هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟) فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني؟ فو الله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجبا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: (قد أذنت لك). فعفا عنه ﷺ رحمة به وأذن له وإن كان قد عدّه الله تبارك وتعالى مع المنافقين، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة:٤٩]، أي إن كان إنما خشى الفتنة من نساء بني الأصفر، وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة أكبر، بتخلفه عن رسول الله ﷺ، والرغبة بنفسه عن نفسه[2].

وبرحمته ﷺ وعفوه عن الناس، فقد هدى الله تعالى مخشن بن حمير وقد كان في رهط من المنافقين فيهم وديعة بن ثابت يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا! والله لكأنا بكم غدا مقرنين في الحبال، إرجافا وترهيبا للمؤمنين، فقال مخشن بن حمير: والله لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر (أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا -أي هلكوا- فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا

(١) المبارك كفوري: الرحيق المختوم، ص٤٤٥.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ص٦٥٩؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢/٢٦٧.

وكذا)، فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم: فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت، ورسول الله ﷺ واقف على ناقته، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦]، وقال مخشن بن حمير: يا رسول الله، قعد بي إسمي واسم أبي، وكان الذي عُفي عنه في هذه الآية مخشن بن حمير، فتسمى عبدالرحمن، وسأل الله تعالى أن يقتله شهيدا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر[1].

هكذا كان هدي الرحمة المهداة في استمالة المنافقين وكسبهم إلى الإسلام وإنقاذهم من الخزي في الحياة الدنيا وإخراجهم من الدرك الأسفل في الحياة الآخرة، فأسلم من أسلم منهم واهتدى وظل من ظل منهم وغوى.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ص٦٦٤؛ ابن عبدالبر: الاستيعاب، ٣/١٣٨١؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢/٢٧١.

المبحث الرابع

هدي الرحمة المهداة في استمالة وكسب أهل الكتاب

بعث الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ رحمة للعالمين وخاتمًا للأنبياء والمرسلين، وجعل الدين الإسلامي هو الدين القيم والسائد على جميع الديانات السماوية، قال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وبذلك أصبح حريًا بأهل الكتاب أن يؤمنوا بالله ورسوله ﷺ كما آمن المسلمون بالله وملائكته وكتبه ورسله، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة:٢٨٥] بشرط أن يكون إسلامهم طواعيةً من غير إكراهٍ أو إجبار، وذلك بحكم الحرية الدينية التي أقرها الإسلام السمح الحنيف بقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦].

وبحكم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ [العنكبوت:٤٦]، فقد دعا رسول الله ﷺ أهل الكتاب إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنى وجادلهم بالتي هي أحسن ودعا أصحابه إلى اتباع النهج ذاته معهم لما يمتلكونه من علمٍ ومعرفةٍ بالديانات

السماوية، وقد آتت هذه الدعوة أُكلها مع أصحمة النجاشي ملك الحبشة الذي أسلم على يد مهاجرة المسلمين إليها. ثم كانت سياسته ﷺ مع الذين أبوا إلا البقاء على دينهم من اليهود والنصارى (قائمةً على الاعتراف لهم بحق الاحتفاظ بعقيدتهم لأنهم أهل كتاب، وكان يشترط عليهم للتعبير عن ولاءهم للدولة الإسلامية أن يدفع الرجال القادرون منهم مبلغًا سنويًا من المال يدعى الجزية، مقابل حماية الدولة لهم وبخاصة وأنه لم يكن مفروضًا عليهم واجب الجهاد وأداء الزكاة)[1]. ثم ما خلت وصاياه ﷺ بأهل الكتاب من رحمةٍ واسعةٍ شملت صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأُنثاهم، منها قوله ﷺ: (من قتل نفسًا معاهدًا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا)[2].

وإذا كانت المرحلة المكية من الدعوة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم قد خلت من تماسٍ مباشرٍ له ﷺ مع أهل الكتاب من يهود أو نصارى ودعوة رحمةٍ منه ﷺ لهم للدخول في الإسلام والخروج بهم من غضب الله عليهم وضلالتهم إلى مغفرةٍ منه جل في علاه، فإن المرحلة المدنية شهدت تماسًا مباشرًا للرسول ﷺ مع أهل الكتاب من يهود المدينة وخيبر وفدك وتيماء أو نصارى الوفود التي أتت إليه ﷺ كنصارى نجران أو من بعض رجالات النصارى العرب الذين اعتنقوا الإسلام على يديه ﷺ كعدي بن حاتم الطائي. ولعلنا في التماسنا لهدي النبي ﷺ ومنهجه في استمالة وكسب أهل الكتاب سنقف عند الخلق السامي والآلية السمحة التي يمكننا من خلالها استمالة المخالفين من أتباع الديانات السماوية واكتسابهم إلى الصف الإسلامي.

مع بداية وصول الرسول الكريم محمد ﷺ إلى المدينة النبوية عمد ﷺ

(١) الملاح: الوسيط في السيرة النبوية، ص٤٨٦.
(٢) البخاري: صحيح، رقم الحديث: ٦٩١٤، ١٦/٩.

إلى تأسيس دولة الإسلام، دولة يتعايش فيها الجميع بحرية وكرامة وسلام. ومن أجل تحقيق ذلك أصدر ﷺ ميثاقًا أزاح به كل ما كان من حزازات الجاهلية ونزعات القبلية، ونظم العلاقات العامة بين أهل المدينة وبينه ﷺ باعتباره صاحب السلطة العليا فيها. وعُرِفَ هذا الميثاق في كتب التاريخ والسيرة النبوية بميثاق التحالف الإسلامي أو صحيفة المدينة. وقد ضمت هذه الصحيفة بنودًا عديدةً نظمت علاقة يهود المدينة -بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة- بدولة الإسلام فيها، وكانت جل هذه البنود رحمة من الرحمة المسداة بيهود المدينة من أجل أن يعيشوا بأمن وسلام في ظل دولة الإسلام، إذ كفلت لهم حرية ممارسة عقيدتهم فقررت أن (لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم)[1]. ثم قررت الصحيفة مبدأ المسؤولية الفردية القائمة على القانون الالهي المنزل بحكم قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [النجم:٣٨]، فقررت أن من ارتكب جرمًا أو عدوانًا من يهود المدينة، فإن المسؤولية تقع على عاتقه وحده، فنصت على أن (من ظلم وأثم، فانه لا يُوتِغُ [2] إلا نفسه، وأهل بيته)[3]. وفي مقابل الحقوق الآنفة الذكر فقد أوجبت الصحيفة على اليهود بعض الواجبات كمعاونتهم للمسلمين ضد من يحاربهم ووجوب النصيحة بينهم وبين المسلمين، فجاء فيها (وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وان بينهم النُصح والنصيحة والبر دون الإثم... وان النصر للمظلوم، وان اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين)[4].

لقد كان حريًا بيهود المدينة أن يعيشوا بأمنٍ وأمانٍ في ظل رحمة النبي

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ص٢٥٥.
(٢) يوتغ: الوتغ، بالتحريك: الهلاك. وتغ يوتغ وتغا: فسد وهلك وأثم. ينظر: ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور (ت: ٧١١هـ): لسان العرب، ط٣، دار صادر، (بيروت: ١٩٩٣م)، ٤٥٨/٨.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ص٢٥٥.
(٤) المصدر نفسه: ص٢٥٥.

ﷺ بهم وعزمه على استمالتهم وإسلامهم، والذي تجلى في العديد من المواقف كإسلام عبدالله بن سلام أحد أبرز أحبارهم وعلمائهم[1]، ثم في جمع الرسول الكريم ليهود بني قينقاع في سوقهم بعد غزوة بدر وحثهم على الدخول في الإسلام قبل أن يصيبهم ما أصاب قريشًا في هذه الغزوة[2]، لكنهم وبحكم ما عُرفوا به وما ملأوا به تاريخهم من نقضٍ للعهود والمواثيق وتكذيبٍ وقتلٍ لأنبياء الله ورسله، فقد تنصلوا يومًا بعد يوم من بنود الصحيفة فأخذوا يثيرون الفتن والقلاقل ويُحيكون الدسائس والمؤامرات، مما اضطر الرسول ﷺ إلى إجلائهم قبيلة تلو الاخرى. ومع غزو النبي ﷺ ليهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة تتجلى رحمته ﷺ بهم ورأفته بحالهم، فمع كل ما لاقاه ﷺ والمسلمون من غدرٍ وخيانةٍ وتنكيلٍ على يد هذه القبائل الثلاثة، إلا أن نبي الرحمة عفا عن بني قينقاع وبني النضير واكتفى بإجلائهم من المدينة دون معاقبتهم وقتلهم جراء ما اقترفوه[3]، في حين كان غدر بني قريظة أقبح وأشنع، إذ نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ في أصعب موقف يمر على المسلمين - وذلك في غزوة الاحزاب - والذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الاحزاب:١٠-١١]، ومع هذا لم يأمر الرسول ﷺ بقتلهم بل جعل أمرهم إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه أحد زعماء الأوس لأنهم (بنو قريظة) كانوا حلفاء الأوس، فحكم فيهم بأن يُقتل الرجال وتُسبى الذرية وتُقسم الأموال، فقال رسول الله ﷺ: (لقد حكم فيهم بحكم الله الذي حكم به من

(١) ينظر في اسلام عبدالله بن سلام رضي الله عنه: ابن هشام: المصدر نفسه، ص٢٦٢-٢٦٣؛ البخاري: صحيح، رقم الحديث: ٣٩١١، ٥/ ٨٠؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ١/ ٢٣٨.

(٢) ينظر: ابن هشام: المصدر نفسه، ص٢٨٣.

(٣) ينظر في غزوتي بني قينقاع وبني النضير: الواقدي، محمد بن عمر (ت: ٢٠٧هـ): كتاب المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، عالم الكتب، (بيروت: ١٩٦٤م)، ١/ ١٧٦، ١/ ٣٦٣؛ ابن هشام: المصدر نفسه، ص٤٠٢، ٤٨٢؛ ابن سيد الناس: المصدر السابق، ١/ ٣٤٣، ٢/ ٧٠.

فوق سبع سماوات)[1]، ثم تتجلى رحمته ﷺ بهم حتى وهم يُعرضون على القتل إذ يأمر الصحابة بأن يرحموهم ويُحسنوا إليهم وأن لا يُجلسوهم تحت الشمس، فيقول: (أحسنوا إسارهم، وقيّلوهم واسقوهم، لا تجمعوا عليهم حرّ الشمس وحرّ السلاح)[2].

وإذا ما قارنّا اكتفاء الرسول ﷺ بإجلاء بني النضير وموافقته على حكم سعد بن معاذ في بني قريظة بقتل رجالهم وسبي ذراريهم وتقسيم أموالهم، نلمس رحمته ﷺ ببني النضير وعدم انتقامه لنفسه إذ أن جرمهم كان شنيعًا كذلك إذ هموا بقتل الرسول ﷺ، لكن نبي الرحمة والحاكم العادل (عليه الصلاة والسلام) يقدم المصلحة العامة على المصلحة الشخصية فيكتفي بإجلاء بني النضير في حين يوافق على حكم سعد بن معاذ في بني قريظة والقاضي -كما أشرنا- بقتل الرجال وسبي الذرية وتقسيم الاموال، ذلك لأن جرمهم كان أشنع إذ غدروا بالمسلمين عامةً وتآمروا على قتلهم واستئصال شوكتهم. ثم إن هذا الخلق السامي والرحمة النبوية منه ﷺ استقطبت البعض من رجالات اليهود إلى الإسلام، فأسلم من بني النضير يامين بن عمير وأبو سعد بن وهب[3]، وأسلم من بني قريظة ريحانة بنت عمرو القرظية التي اصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه وأسلم عطية القرظي ورفاعة بن سموأل القرظي وعبدالرحمن بن الزبير بن باطا القرظي[4]. كما أسلمت بعد غزوة خيبر في السنة السابعة للهجرة صفية بنت حيي بن أخطب فاصطفاها رسول الله لنفسه وتزوجها، ورأت من رحمة الرسول ﷺ ما مال بها إلى الإسلام، وذلك عندما عاتب رسول

(١) يُنظر في غزوة بني قريظة: الواقدي: المغازي، ٤٩٦/٢؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ص٥٠٥، ابن أبي شيبة: المغازي، ص٢٦٣؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ١٠٠/٢؛ والحديث صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم الحديث: ٢٧٤٥، ٥٥٦/٦.
(٢) الواقدي: مغازي الواقدي، ٥١٤/٢، والصالحي: سبل الهدى والرشاد، ١٣/٥.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ص٤٨٣.
(٤) المصدر نفسه: ص٥١٠، ٥١١.

الله ﷺ بلالا الحبشي رضي الله عنه لقيامه بعرض صفية ويهودية أخرى كانت معها في السبايا على قتلى قومهما فقال ﷺ: (أنُزِعت منك الرحمة يا بلال، حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما)[1].

ولما قدِم وفد نصارى نجران إلى المدينة في السنة التاسعة للهجرة والتقوا برسول الله ﷺ فاكرمهم وأحسن ضيافتهم، وباهلهم وحاججهم بعقيدتهم أسلم منهم رجلان من سادتهما بعد ايقانهما بأنه ﷺ نبي آخر الزمان، وهما أميرهم الملقب بالعاقب واسمه عبدالمسيح، وصاحب رحلهم والملقب بالسيد واسمه الأيهم، وأسلم منهم كذلك كوز بن علقمة[2].

وأسلم عدي بن حاتم الطائي وكان نصرانيًا لمّا رأى من رحمة النبي ﷺ بأخته سفانة بنت حاتم التي كانت من ضمن سبايا طي، إذ هرب عدي إلى الشام وحمل معه زوجته وأبناءه لما علم بجيش المسلمين قد اقترب من دياره، وترك خلفه أخته سفانة التي وقعت في أيدي المسلمين، فأحسن رسول الله ﷺ إليها لمكانة أبيها في العرب، ثم منَّ عليها وأطلق سراحها، فذهبت إلى أخيها في بلاد الشام، وأخبرته بحسن تعامل النبي ﷺ معها ورحمته بها، فما كان من عدي إلا أن يأتي المدينة ويدخل على النبي ﷺ ويعلن إسلامه سيما بعدما رأى من رحمته ﷺ مع امرأة عجوز، وبعدما رءاه من حسن معاملة منه ﷺ وإكرامه له بأن أعطاه وسادته ليجلس عليها وجلس هو على الارض[3].

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ص٥٦٣، والصالحي: سبل الهدى والرشاد، ١٣/٥، والحديث ضعيف لأنه من رواية اسحاق بن يسار والد محمد بن اسحاق صاحب السيرة معلقًا؛ ينظر: ابن اسحاق: سيرة ابن اسحاق: ٢٦٤/١.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٩٥، ٢٩٦؛ وينظر: المبارك كفوري: الرحيق المختوم، ص٤٦٥.
(٣) المصدر نفسه: ص٦٩٥-٦٩٧.

الخاتمة

- إن رحمة النبي ﷺ رحمةٌ شاملةٌ وعامةٌ وعالميةٌ، وليست عنصرية تقوم على الأعراق أو الألوان أو المذاهب، بل رحمة لكل البشر، للعربي وغير العربي، للمسلم وغير المسلم، للمؤمن والمنافق، للرجل والمرأة، للكبير والصغير، للإنسان والحيوان والجماد والنبات. فإضافة إلى رحمته بالمسلمين فقد بُعثَ ﷺ رحمةً لغير المسلمين يوظف هذه الرحمة معهم بأن يأتلف قلوب المشركين وأهل الكتاب ليدخلوا في الإسلام، فكان ﷺ حريصًا على هداية الناس ودعوتهم إلى الإسلام وكسبهم واستمالتهم بالحكمة والموعظة الحسنة بدلًا من قتالهم ودفعهم إلى اعتناقه بالقوة، وهذا الذي أدى به إلى ملاطفتهم والتكلم معهم بأرق الكلام وألينه، والإحسان إلى أسراهم والعفو عنهم، ودعوته أصحابه ﷺ ومن ثم الأمة الإسلامية إلى الالتزام بهذا الهدي الراقي في التعامل مع المخالفين في الدين من أجل استمالتهم وكسبهم إلى الإسلام بالكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة لا بالتخويف والترويع والترهيب، لنكون بهذا الدين القويم والسمح خير أُمةٍ أُخرجت للناس تدلهم إلى طريق الحق ليخرجوا من ظلام الكفر والوثنية إلى نور الإسلام والتوحيد.

- إن حياة اليتم والعمل والكدح والخلوة التي عاشها رسول الله ﷺ كان لها الأثر الكبير في امتلاء قلبه الشريف بالعطف والرحمة بالناس أجمعين. إذ هذبه اليتم والفقر فعاش معدمًا يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة، وكانت مهنة رعي الغنم التي امتهنها رسول الله ﷺ في مقتبل شبابه قد أشربت قلبه الشريف بالرحمة لما لهذه المهنة من أثر في اكتساب صاحبها الرحمة بالحيوان والعطف عليه. ثم اشتغل ﷺ بالتجارة، فخالط الناس وعاشر أصنافهم وخبر أخلاقهم وأكتسب الرحمة في التعامل معهم. ثم أكرمه الله تعالى بأن أنزل عليه قرآن الرحمة والذي ضم بين دفتيه دعواتٍ كثيرةٍ إلى الرحمة بالمخلوقات من إنسٍ وجانٍ وحيوانٍ ونبات، إذ دعا إلى الرحمة بالناس مسلمهم وكافرهم، ففاضت دعوة النبي ﷺ والتعاليم التي جاء بها بالرحمة بكل المخلوقات ومنهم بنو البشر مسلمهم وكافرهم، فالإسلام رحمةٌ في ذاته ورحمةٌ في تعاليمه ورحمةٌ في أحكامه، ولعل تدرج النبي ﷺ في دعوته كانت رحمةً بحد ذاتها، ليتسنى للناس تقبل الدين الجديد.
- بما عرف عنه من خلق عظيم لم يكن نبي الرحمة محمد ﷺ ليدعو على المخالفين له، بل كان ﷺ يدع الله لهم بالهداية والتوفيق إلى طريق الحق طريق الإسلام، وهذا ما حصل مع مشركي قريش بعد غزوة أحد إذ قال للصحابي الذي طلب منه أن يدع على قريش ويستنزل اللعنة عليهم: (إني لم أُبعث لعانًا ولكني بُعثتُ داعيًا ورحمةً، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون)، فكان من رحمته ﷺ أنه كان يدع للمشركين بالهداية والاعتذار عنهم بالجهالة، فكان ﷺ يشفق عليهم ويرحمهم ويدع لهم بسبب جهلهم بحاله ومقام كماله.
- كما لم يكن النبي ﷺ لينتقم لنفسه أبدًا، بل على العكس من ذلك

تمامًا كان أقرب ما يكون إلى العفو والصفح مع المخالفين له لعل الله أن يهديهم إلى الإسلام ويرحمهم برحمته التي وسعت كل شيء. وقد تجلى ذلك في العديد من الغزوات التي أمكن الله لنبيه بها على أعدائه، فلم ينتقم من بني قينقاع وبني النضير بعد أن أظهره الله عليهم بل اكتفى بإجلائهم من المدينة، ولم ينتقم من قريش يوم أن منّ الله عليه بالفتح العظيم بل قال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء ومن رحمته أيضًا فإنه لم يكن لينتقم من الأسرى الذين وقعوا في قبضته من بعد أن أظفره الله بهم، بل كان يدع إلى الإحسان إليهم وفك أسرهم إذا اقتضت المصلحة لذلك.

- على الرغم من ما شكله المنافقون في المدينة من عامل ضعفٍ وانقسام في صفوف المسلمين، ومن اتصالاتٍ كانت لهم مع اليهود والمشركين من أجل القضاء على المسلمين، وعلى الرغم من توعد الله لهم بالعقاب الشديد يوم القيامة، إلا أن رحمة نبي الرحمة شملتهم في الدنيا، فكان ﷺ حريصًا على إيمانهم وكسبهم إلى الإسلام وإنقاذهم من الخزي في الحياة الدنيا وإخراجهم من الدرك الأسفل في الحياة الآخرة، فبسبب رحمته هذه لم يروا العذاب في الحياة الدنيا، فاختلطوا بالمؤمنين وحضروا صلاتهم في المسجد، ولم يقم الرسول الكريم بفضح أمرهم للصحابة، وبسبب رحمته هذه أسلم من أسلم منهم واهتدى وعاد إلى الصف الإسلامي بعد أن أنقذته رحمة النبي ﷺ.
- كما لم يكن أهل الكتاب بمنأى عن رحمة رسول الرحمة، إذ كان ﷺ حريصًا على إسلامهم بصفة الإيجاب التي فرضها الله على أتباع الديانات السماوية بإتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدونه

مكتوبًا عندهم في التوراة والانجيل، وبقضاء الله تعالى بسيادة الإسلام على كل الديانات الأخرى لكونه الدين الباقي يوم القيامة. لذلك حرص نبي الرحمة على استمالة أهل الكتاب وإسلامهم وإيمانهم به ﷺ بصفته خاتم الأنبياء والمرسلين، ودعا الصحابة والأمة إلى انتهاج نهجه في دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام.

- إن نهج الرحمة الذي انتهجه رسول الرحمة ﷺ مع المخالفين له من أجل استمالتهم وهدايتهم ثم اكتسابهم إلى الصف الإسلامي قد آتت أكلها مع قريش وثقيف وهوازن وغيرها من القبائل في شبه الجزيرة العربية، وآتت أكلها كذلك مع العديد من المنافقين الذين عادوا إلى رشدهم وأبصروا نور الإيمان، ثم آتت أكلها أيضًا مع العديد من رجالات أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أعتقوا الإسلام وآمنوا بخاتم الانبياء والمرسلين. لذلك لا سبيل إلى العنف والإرهاب والتخويف والترويع في التعامل مع المخالفين، بل يكون السبيل إليهم بدعوتهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، رحمةً بهم وإنقاذًا لهم من الخزي في الحياة الدنيا ومن العذاب في الآخرة.

وفي الختام لا يسع الباحث إلا أن يلتمس من اللجنتان العلمية والتحضيرية للمؤتمر وإلى الباحثين والمشاركين فيه، بأن يتكرموا بقبول بضعًا من التوصيات التي تُنمي فينا وفي أبناء الأمة روح الرحمة في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلة المخالفين لنا بالتي هي أحسن، والتي تتلخص في التالي:

١. العمل الجاد والبنّاء في تنشئة أجيال تدعو إلى الله بمنهج نبي الرحمة محمد ﷺ وبما سار عليه الصحابة الكرام والتابعين

الأخيار في دعوتهم ونشرهم الإسلام في أرجاء المعمورة. ذلك النهج الذي اتخذ من الرحمة بالناس ديدنًا له في نشره للإسلام، وفي تعامله مع المخالفين من أجل استمالتهم إلى الإسلام أولًا وترغيبهم فيه، ثم اكتسابهم إلى الصف الإسلامي وإنقاذهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة آخرًا.

٢. من أجل تحقيق ذلك لابد وأن تكون هناك جهود جبارة تضطلع بها الهيئات التربوية والتعليمية والتي تبدأ بالبيت المسلم ومرورًا بالمدارس والمعاهد والجامعات، لتأخذ على عاتقها إنشاء هذه الأجيال التي ترى في الرحمة والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة الأسلوب الأمثل في نشر الإسلام وتعاليمه، وان تُنكِر الأفكار الهدامة التي تنتقص من رحمة الاسلام ورسوله. وتضطلع الهيئات الإعلامية من إذاعاتٍ وقنواتٍ فضائيةٍ ومواقع إسلاميةٍ الكترونيةٍ بدورها كذلك في إبراز أساس الرحمة الذي بُني عليه الإسلام ودعا إليه في التعامل مع المخالفين.

٣. كما يقع العبئ الأكبر في نقل صورة الإسلام البراقة وصورة نبي الإسلام ﷺ ورحمته بالعالمين على عاتق الدعاة المسلمين الذين ينتشرون في أرجاء المعمورة داعين إلى الله بنهج نبيهم ﷺ الذي أشرنا إليه آنفًا، مبينين للعالم رحمة الإسلام ورحمة المسلمين وتراحمهم فيما بينهم، ومنكرين لكل ما أُلصق بالإسلام بهتانًا وزورًا، وما أشاعه أعداء الإسلام من أفكارٍ هدامةٍ ألصقوها به واستقطبوا بها أناسًا غُرِرَ بهم ليعملوا على تشويهه وتشويه تعاليمه السمحة.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر الأولية

ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني (ت: ١٥١هـ):

١. سيرة ابن إسحاق (كتاب المغازي والسير)، تحقيق: سهيل زكار، ط١، دار الفكر، (بيروت: ١٩٧٨م).

٢. البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري (ت:٢٥٦هـ):

٣. صحيح البخاري، ط١، دار الشعب، (القاهرة: ١٩٨٧م).

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى (ت:٢٧٩هـ):

٤. سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، (بيروت: ١٩٩٨م).

الحاكم، أبو عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم النيسابوري (ت:٤٠٥هـ):

٥. المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٩٠م).

ابن سيد الناس، أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن أحمد (ت: ٧٣٤هـ):

٦. عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، ط١، دار القلم، (بيروت: ١٩٩٣م).

ابن أبي شيبة، أبو بكر عبدالله بن محمد (ت: ٢٣٥هـ):

٧. كتاب المغازي، تحقيق: عبدالعزيز بن إبراهيم العمري، ط٢، دار اشبيليا للنشر والتوزيع، (الرياض: ٢٠٠١م).

الصالحي: محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت: ٩٤٢هـ):

٨. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد،تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٩٣م).

ابن طولون الصالحي، شمس الدين محمد بن علي بن طولون الدمشقي الصالحي (ت:٩٥٣هـ):

٩. الأربعين في فضل الرحمة والراحمين، تحقيق وتخريج: محمد خير رمضان يوسف، ط١، دار ابن حزم، (بيروت: ١٩٩٥م).

ابن عبدالبر، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري القرطبي (ت: ٤٦٣هـ):

١٠. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط١، دار الجيل، (بيروت: ١٩٩٢م).

القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض (ت: ٥٤٤هـ):

١١. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ط٢، دار الفيحاء، (عمان: ١٩٨٦م).

مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت:٢٦١هـ):

١٢. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت: د.ت).

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور (ت: ٧١١هـ):

١٣. لسان العرب، ط٣، دار صادر، (بيروت: ١٩٩٣م).

الهروي، نور الدين أبي الحسن علي بن سلطان محمد (ت: ١٠١٤هـ):

١٤. شرح الشفا، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت: ٢٠٠٠م).

ابن هشام، أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت: ٢١٣هـ):

١٥. السيرة النبوية، ط٢، طبعة جديدة منقحة ومرتبة، دار مكتبة المعارف، (بيروت: ٢٠١٣م).

الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي المصري (ت:٨٠٧هـ):

١٦. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: محمد عبدالقادر أحمد عطا، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت: ٢٠٠١م).

الواقدي، محمد بن عمر (ت: ٢٠٧هـ):

١٧. كتاب المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، عالم الكتب، (بيروت: ١٩٦٤م).

ثانيًا: المراجع الحديثة

الألباني، أبو عبدالرحمن محمد ناصر الدين (ت:١٤٢٠هـ):

١. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ط١، مكتبة المعارف، (الرياض:١٩٩٥م). أبو شُهبة، محمد بن محمد بن سويلم (ت: ١٤٠٣هـ):

٢. السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ط٨، دار القلم، (دمشق: ٢٠٠٦م).

المبارك فوري، صفي الرحمن:

٣. سيرة رسول الله ﷺ- الرحيق المختوم -، ط٢، دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق - بيروت: ٢٠١٢م).

الملاح، هاشم يحيى:

٤. الوسيط في السيرة النبوية، ط١، دار النفائس، (عمّان: ٢٠٠٣م).

ياقوت، محمد مسعد:

٥. نبي الرحمة، تقديم: فريد عبدالخالق، ط١، الزهراء للإعلام العربي، (القاهرة: ٢٠٠٧م).